اعتراف محب للسلام

وسياسة المانيا العدائية

قرأ السر وليم مشل رمزي العالم الاثري مقالة مسهبة في مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية ذكر فيها اموراً كثيرة مما عرفهُ عن الالمان مدة اقامتهِ في بلادهم تلميذاً ومدة معاشرتهِ لهم واشتغالهِ معهم فلخصنا منها الصفحات التالية قال

ان ما يأتي يتضمن خلاصة ما عرفتهُ بالاختبار مدة اكثر من اربعين سنة عاشرت فيها علماء الالمان والشعب الالماني . وقد توخيت فيها انصافهم بذكر الحسنات والسيئات لاسيما واني بقيت اكثر من ثمان وثلاثين سنة وانا اودهم واحب بهم الى ان كانت سنة ١٩١٢ فاتضح لي فيها ان رأيي القديم فيهم لا ينطبق على احوالهم الحاضرة وان مناحي المانيا تغيرت فصارت خطراً على السلم العام وجعلت تحسب بريطانيا حجزاً بينها و بين امانيها كدولة عظيمة فصار همها الاكبر الاستعداد للقضاء عليها

ولا اقول ان المانيا مخطئة في كل آرائها وافعالها ولا بريطانيا مصيبة في كل ما ارتأت وفعلت ولكن قوة بريطانيا قائمة في ان افعالها آلت بوجه الاجمال الى فائدة العالم بنوع عام اكثر مما آلت افعال اية دولة اخرى . ولقد كانت المانيا نافعة لغيرها بارتقائها ولكنها فقدت هذه المزية بغرورها و بالجهل الذي ادى اليهِ هذا الغرور والضرّ الذي نتج عنهُ . و يتضح ذلك من النظر في نشوء المانيا الجديدة من المانيا القديمة

ان العلم الذي اخترتهُ للاشتغال بهِ وقضيت اعمر فيهِ جعلني اتصل بعلماء الالمان . فاني اقمت اولاً في جامعة اكسفرد سنتين في احدى مدارسها القديمة فلم ارَ فيها مرغبات العلم ومن ثم اجتاز الامتحان النهري في صيف سنة ١٨٧٤ حتى اسرعت الى المانيا لاقضي الاجازة فيها فرأيت هناك ما يحبب العلم الى طلابهِ . وحينذٍ لو تمكنت حينئذٍ من الذهاب الى فرنسا ايضاً ولكن لم تكن فرنسا حينئذٍ ما صارت اليهِ في القرن العشرين من حيث محبة العلم . ولما انتهت اجازتي وعدت الى اكسفرد اعطاني بعض الاساتذة الالمان مكاتيب الى اصدقائهم من

اساتذة اكفاء مثل كوك ولسن ومكسر مفر وسايس فاتسح امامي باب تحديد لهجة الدرس والعلم

ومن سنة ١٨٧٤ الى سنة ١٩٠٥ كان اختلافي بالالمان محصوراً بالعلماء منهم الذين من العهد الماضي . وكان مذهبهم العلمي يقضي على الطالب ان لا يقلد ولا يتابع غيره في شيء بل يفتكر لنفسه ولا يأخذ عن غيره شيئاً ما لم يكيفهُ حتى يصير كأنهُ من مبتكراتهِ وبنات افكارهِ . وكل ما بلغتهُ ولو كان قليلاً الفضل فيهِ لأولئك الاساتذة . وقد اعترفت لهم بهذا الفضل دائماً باحترامهم والاعجاب بهم وانتقاد ما رأيتهُ محلاً للانتقاد من تعاليمهم . هذا كان شأن العلم والعلماء في المانيا في العهد القديم وكان هذا شأني وشأنهم لما أرسلت الى بلاد اليونان و بلاد الدولة العثمانية في آسيا سنة ١٨٨٠ للبحث والاستقصاء ولقيت حينئذٍ من قنصل المانيا في ازمير الذي اكتشف آثار برقاموس من المودة والتمضيد ما لم ار مثلهُ من قناصل بريطانيا في بلاد الدولة العثمانية

وسنة ١٩٠٥ التقيت بقنصل آخر المماني في مدينة بعيدة في تركيا حيث لم يكن احد من الاوربيين المتعلمين فكنت اجتمع بهِ كثيراً وكان من رجال السياسة ومن العلماء في الآثار الشرقية عالماً مدققاً كثير الاشتغال الا انهُ كان يأسف على السنوات التسع التي قضاها في تعلم اليونانية واللاتينية . وكثيراً ما كنا نتذاكر في المواضيع السياسية وكان من رأيهِ ان لا بدَّ من الحرب بين المانيا وانكلترا لان الحوادث ستقضي بذلك قضاء لا مفر منهُ . وكان يردد هذه العبارة وهي « اني انا آسف لوقوع هذه الحرب ولكن ما انتم وانتم مسيرون للوقوف في طريقنا ونحن مسيرون لدفعكم من هذا الطريق » ثم يقول ان احب ما يسمعهُ الالمان الآن في اجتماعاتهم العمومية هو الحديث عن الحرب المقبلة بين المانيا وانكلترا . اما انا فلم اكن احبذ هذا الكلام حينئذٍ بل كنت اجادلهُ واسفّه رأيهُ مبيناً لهُ ان هنالك اعتبارات اخرى لا يعلمها تمنع وقوع الحرب او تؤخرها الى ما شاء الله فلا تقع الاَّ اذا اضرت بمصر رجال السياسة التصيري النظر في عواقب الامور . وليس في انكلترا ما يدعو للحرب وكل مقومات العمران الاوربي تقاوم الحرب الآن لاسيما وان الناس قد ادركوا ان ويلات الحروب تصيب الغالب كما تصيب المغلوب على حد سوى ولا بد من ان ساسة

الالمان يعلمون ذلك اتم العلم ولو تكلموا عن وجوب الاستعداد للحرب لانهم اذ يفعلون ذلك لكي يقنعوا الشعب بدفع الاموال اللازمة لبناء البوارج الحربية

لم يقنعني كلامهُ ولكنهُ اثر في بعض التأثير ولاسيما بعد ان كرَّره مراراً على نسق واحد فجعلت ارقب مظاهر السياسة . ثم التقيت بعد ذلك بكثيرين من الالمان في البلاد العثمانية من المشتغلين بالسياسة فجعلت انتبه لاقوالهم اكثر مما كنت انتبه لو لم اسمع كلام القنصل المشار اليهِ آنفاً . ثم رقي ذلك القنصل الى منصب اعلى من منصبهِ فنقل الى مكان آخر على غير رغبتهِ فانهُ كان يفضل ان يبقى في برِ الاناضول لاعتقادهِ ان تلك البلاد ستصير ميداناً سياسياً كبير الاهمية . وقد كان كثير الاهتمام بالكتابات العربية التي في برِّ الاناضول والف فيها كتاباً ضخماً واستأجر اناساً من السكان سرقوا لهُ بعض الآثار القديمة فارسلها الى برلين تحت ختم القنصلاتو . وعرف الامر وقبض على اثنين من هؤلاء الرجال ووُجد معهم باب قديم مزخرف سرقوهُ من اثر مشهور ونقلوهُ الى بيت القنصل مسافة اربعين ميلاً . ثم رأيت هذا القنصل سنة ١٩٠٧ و بلغني حديثاً انهُ مات في دمشق بالتيفوس منذ عهد قريب وكان قد قضى السنتين الاخيرتين يدعو الناس في سورية الى منابذة الانكليز . ولقد كان هذا الرجل يمثل كل المماني في حبهِ لبلادهِ وبذلهِ كل مرتخص وغال في سبيل مجدها لكنهُ لم يكن يحجم عن سرقة ما عند امة اخرى محالفة لامتهِ لكي يتحف بلادهُ بهِ معتمداً على المنصب الذي هو فيهِ لارتكاب هذا الفعل القبيح . ولم نسمع عن هذا الفعل وامثالهِ الاَّ بعد ان نقل من برِّ الاناضول فعجبنا من اجتماع الفضائل والرذائل في شخص واحد على هذه الصورة ومن اقتناعهِ ان الرذيلة يمكن ان تنتج فضيلة

وكان هذا القنصل يمثل كثيرين من الالمان من وجه آخر وهو تعزيز سياسة بلادهم ولو في ما يستقدرون انهُ خطأ فانهُ كان من اشد انصار حزب الاستعمار الالماني ولكنهُ قال لي غير مرة انهُ يفضل الاقامة في مستعمرة انكليزية على الاقامة في مستعمرة المانية . وتأييدهُ لحزب الاستعمار جعلهُ من اشد المعجبين بولي عهد المانيا والكارهين لابيهِ الامبراطور خاسباً انهُ سيضر المانيا في المستقبل كما اضر بها في الماضي . ومن الغريب انهُ كان يكره ملتكي رئيس اركان الحرب خاسباً اياهُ نكساً وكلاً معتمداً على المنصب الذي هو فيهِ والاسم الذي ورثهُ من ملتكي الاكبر

ومقدرته على مرضاة الامبراطور . وكثيراً ما قال لي انهُ اذا دخلت المانيا في حرب وكان ملتكي لا يزال رئيساً لاركان الحرب وقعها في بلية عظيمة . ولا شبهة في انهُ كان يعبر عن رأي جمهور كبير من رجال الحرب في المانيا . وقد كان قولهُ هذا مثل نبوّة تنبأ بهِ فان هذه الحرب ابتدأت وملتكي رئيساً لاركان الحرب ثم كانت معركة المارن التي دارت فيها الدائرة على الالمان

ثم تعرفت بكثيرين من الموظفين الالمان لبعضهم وظائف علنية ولبعضهم وظائف سرية وكانوا كلهم دائبين في القيام بالاعمال المنوطة بهم فتراهم من الصباح الى المساء يدرسون و يرسمون و يبحثون ويحققون لكي يقوموا بما يطلب منهم احسن قيام حاسبين ان عملهم جزء لا يتجزأ من حياتهم فاذا زرتهم او زاروك انتقلوا بالحديث رويداً رويداً الى تركيا وعادات الاتراك واساليبهم وافضل الطرق للمعاملة معهم . وقد كنت آسر بلقائهم لانني كنت مهتماً مثلهم باحوال تركيا . وكنت اذا لقيت احداً من الالمان في سكة الحديد او الفندق اراهُ فظاً لا يطاق الى ان يدور الكلام على تركيا فاذا لحظ انني اعرف عنها شيئاً صار كلهُ انساً وظرفاً وجعل يحدثني في هذا الموضوع . وكثيراً ما كان يأتي واحد لا اعرفهُ فيعرفني بنفسهِ معتذراً بانهُ بلغهُ انني سافرت كثيراً في تركيا ويريد ان يستفيد من معرفتي بها . هذا ما يقال في مدحهم ولكنهم كانوا كالفصل المشار اليهِ آنفاً لا يحجمون عن فعل مهما كان منكراً اذا ظنوا انهُ يأول الى نفع بلادهم . واذا حدثتهم في السياسة خرجوا عن المعقول

ولا شبهة في انهم افادوا تركيا فائدة كبيرة في انشاء سكة الحديد واعمال الري ونحوها ولكنهم عملوا اعمالاً اخرى كرهتهم الى السكان . وقد قال لي واحد من الاتراك انهم كالجراد يأتون على كل شيء ولا يبقون على خضراء ولا على يابسة . لكن هذا الرجل نفسهُ كان اكبر المعجبين بالاعمال العظيمة التي عملوها والهمة التي اتموها بها

وفي صيف سنة ١٩٠٩ دعاني قنصل جبران في القسطنطينية للطعام وكان على المائدة رجل اذاني كان فلاً اميرالاً في الاسطول التركي وقد جاء الآن ليبيع الحكومة العثمانية بعض البواخر الحربية . وكان اكثر الحضور من اصدقائنا فجعل

هذا الاميرال يشبه الحرب البحرية القادمة بين انكلترا والمانيا مبيناً كيف ان الاساطيل الالمانية تستطيع ان تمر في البحر الشمالي آمنة بسبب ما على الساحل الالماني من الحصون التي تحميها كأنهُ كان يصف ما حدث فعلاً في هذه الحرب. ولكنني لا اتذكر انهُ اشار الى فعل الغواصات. وكان يتكلم عن الحرب كانها امر محتوم لا مفر منهُ. فاثر كلامهُ في نفسي اكثر مما اثر كلام الفنصل المذكور سابقاً. وكان من رأيهِ ان الدولتين انكلترا والمانيا سائرتان نحو الحرب حتماً وقد بلغتا في سيرهما مرحلة يستحيل عليهما الرجوع عنها. واتضح لي من كلامهِ انهُ رجل مخلص وانهُ يود بريطانيا اكثر مما يود المانيا. ولم يكن يعبأ بالاسباب الداعية الى هذه الحرب بل كان همهُ مصروفاً الى ما يتعلق بحرفتهِ وهو كيفية ادارة الحرب البحرية. ومما استوقف نظري بنوع خاص اهتمامهُ الشديد بالطيران فانهُ كان يحسب لهُ اكبر حساب في الحرب المقبلة

وبعد بضعة أسابيع قابلت رجلاً من اكبر الثقات في برلين وحادثتهُ محادثة طويلة عن الحرب لعلي ازيل ما علق بذهني من كلام ذلك الاميرال. واسم هذا الرجل معروف عند كل المشتغلين بالسياسة ولكنني لست حراً لاذكرهُ فرأيت من رأيهِ ان سياسة المانيا متجهة ضد الولايات المتحدة اكثر مما هي متجهة ضد بريطانيا وانها لا تقصد بمحاربتها البحرية القضاء على عمارة بريطانيا بل اجتياح اميركا الجنوبية وذلك يستلزم حتماً محاربة الولايات المتحدة لان اهاليها لا يسلمون بوصول الالمان الى اميركا الجنوبية وتثبيت قدمهم فيها. وكان من رأيهِ ايضاً انهُ لا يصعب التوفيق بين بريطانيا العظمى والمانيا ومنع نشوب الحرب بينهما

وقد رأى هذا الرجل بعد ذلك انهُ كان مخدوعاً اما انا فرأيت حينئذٍ ان ما اشار اليهِ محتمل او مرجح. وكيفما كانت الحال فكلامهُ يدل على انهُ كان في المانيا حزب مضاد للحرب او يميل الى الاتفاق مع بريطانيا على وجه من الوجوه لمنع الحرب. ومما قالهُ لي ايضاً ان وزراءنا (اي وزراء الانكليز) على حبهم للسلم وسعيهم اليهِ يذكرون في خطبهم اموراً تنيط الالمان وتحملهم على الرغبة في الحرب

ولما كان هذا الرجل في مركز يخولهُ الوقوف على حقيقة السياسة الالمانية اثر كلامهُ فيّ فبقيت ثلاث سنوات مرتشداً بهِ في اعمالي

وسنة ١٩١٢ كنت راجعاً من القسطنطينية فرأيت ما اقنعني بخروج الموقف وان الحرب على الابواب وانني كنت مخطئاً في حسباني وقوعها ضرباً من المحال لاسيما وانني رأيت وانا في برلين سنة ١٩١٠ خرائط ما ستكون عليهِ البلدان في المستقبل القريب وفيها ممالك المانيا والنمسا ممتدة من الطار الى القسطنطينية وكونيغسبرغ وريغا ورأيت الاطفال يتعلمون في مدارسهم كره انكلترا والشيوخ يخوفون من غزوها لبلادهم والشبان يرغبون في محاربتها واغتنام اموالها

ولما نشبت حرب البلقان توقع الالمان وتوقعتُ انا ايضاً ان يكون الفوز للاتراك فجاءت النتيجة على ضد ذلك وللحال شعرت المانيا ان فوز دول البلقان يقيم لها عدواً جديداً في شرق اوربا فقلتُ في نفسي ان ذلك تدبير الهي لمنع الحرب العظمى ولكن الالمان فعلوا بين بلغاريا وصربيا واليونان والقوا بينها العداء . وفي شهر مايو من سنة ١٩١٣ قال لي رجل خبير في القسطنطينية ان المحالفة بين تركيا والبلغار كادت تتم واخبرني آخر ان الاستعداد قائم في البلغار على ساق وقدم لمحاربة الصرب واليونان فحدث ذلك فعلاً بعد شهرين . وسن الالمان نظاماً جديداً للجندية قبلتهُ البلاد بسهولة وزاد بهِ عدد جيشهم اكثر من نصف مليون لان الناس كانوا راغبين في الحرب اشد الرغبة ومتدربين في مدارسهم على طاعة حكامهم في كل ما يأمرون

ولديَّ أمثلة كثيرة على ذلك منها ان ابني الاصغر كان يدرس الالمانية سنة ١٩١٠ في مدرسة بالمكان المعروف بالغاب الاسود فكان البعض يسألونهُ من وقت الى آخر قائلين متى يجتاح الانكليز بلادهُ . ومنها ان الملحق في السفارة الاميركية ببرلين بعث بابنهِ الى مدرسة المانية كان يعجب بها فجاءهُ ابنهُ بعد ايام وقال له ان معلمهُ قاصهُ لان التلميذ الجالس الى جانبهِ اذنب ولم يشكهُ هو الى المعلم فقال لهُ ابوهُ انك احسنت في عدم شكواك لكن يجب عليك ان تطيع كل قوانين المدرسة ولكنك لست مطالباً بمراقبة غيرك من التلامذة . وبعد ايام حدث ما حدث اولاً ولما اراد المعلم ان يقاص هذا التلميذ دافع عن نفسهِ بما قالهُ ابوهُ لهُ فارسلهُ رئيس المدرسة الى ابيهِ ومعهُ كتاب منهُ يقول لهُ فيهِ انك ان لم توجب على ابنك ان يطيع كل قوانين المدرسة تماماً (وفي جملتها الشكاية على الغير) فلا تردهُ اليها وهذا النظام من التعليم يوجب على كل طفل وفتى ان يكون جاسوساً على

غيره يتجسس اعماله ويخبر بها معلم المدرسة وهو في المدرسة وحاكم البلاد متى خرج من المدرسة

وقد راق هذا انتظام ونظام الجندية جمهور الالمان حتى الشيوخ منهم. قال لي واحد من اهالي ورتمبرج وكان مسافراً معي من بودابست الى القسطنطينية ان نظام المدارس الالمانية ونظام الجيش الالماني غاية ما تطلبهُ الجمهورية لان التلامذة متساوون تماماً في مدارسهم اغنياءهم وفقراءهم شرفاءهم وصعاليكهم وكذلك الجنود متساوون في كل شيء . وفاتهُ ان التلامذة والجنود وان كانوا متساوين كتلامذة وجنود لكنهم تحت سيادة معلميهم وضباطهم وهذه السيادة استبدادية مطلقة وقد خضع لها الشعب الالماني حتى الاشتراكيون منهم

ثم اسهب الكاتب في لوم بلاده لتغاضيها عن الاستعداد للحرب . وحضرت اجتماعاً في غلاسكو سنة ١٩١٢ لتشجيع عمل الطيارات في اسكتلندا وأعطيت كرسي الرياسة فالقيت خطبة قلت فيها انهُ يستحيل علينا ان نحارب عدواً الآن اذا كنا غير مستعدين لمحاربتهِ في الهواء واننا باهمالنا امر الطيران حرمنا انفسنا من آلة مهمة من آلات الحرب . واشرت الى النفقات الكبيرة التي تنفقها المانيا في هذا السبيل . ولا ينحصر الاهتمام هناك بالحكومة بل ان الامة الالمانية اكتتبت تلك السنة بمبلغ ٣٢٥٠٠٠ جنيه لاجل الطيران والسبيل الوحيد لمقاومة البلونات هو الطيارات حتى ان البوارج الحربية قلّ نفعها مالم تعززها الطيارات

ثم استطرد الى تأثير الحرب الحاضرة في المانيا. وعندهُ ان عامة الشعب ندمت على ما حدث بعد ما خاب املها ولقيت ما لقيت من الشدائد واما الخاصة فلا تزال تعتقد انها لم تفز كما قدّرت لانهُ وقع في حسابها بعض الخطل وستلافى ذلك في المستقبل في حرب تستعد لها اكثر مما استعدت لهذه الحرب . وهذه الخاصة لم تشعر بالخسارة حتى الآن لانها لم تخسر الاّ من قتل منها واما في ما سوى ذلك فقد زادت سلطتها وسطوتها ومكنت سيادتها على النمسا وتركيا والبلغار وزادغناها لان اكثر الاراضي الزراعية لها فربحت كثيراً من ارتفاع الاسعار